

الفصل السابع

دراسة أكاديمية في الصراع العرقي الإسرائيلي

نوفمبر ١٩٧٨

و.. هذه هي الشخصية اليهودية « الثانية » التي لا تزال تنطبع في نفسى
وذاكرتى منذ رحلة السنوات الأمريكية التي عبرت بنا الولايات المتحدة من الشرق
إلى الغرب .. مروراً بالجنوب ، مع مطلع ١٩٧٨ .

وشخصية هذه المرة من نوعية تختلف تماماً عن شخصية « الملياردير » جوليوس
ليفجنستون ، الشيخ المتعصب لإسرائيل الذى قد تحول كلفة تعاطف صادق إلى ما
يشبه الطفل الودود ، أو بكلمة أخرى قد يتحول هو بشخصه إلى معسكر كامل من
سوء الظن والشكوك .

أما شخصية هذا الأسبوع فهي نوعية تختلف .. سيدة شابة : جيل كويلر راينز
التزامها بعيد عن العاطفة ، عقلانى بحت ، نتاج ذهن متوقد يعمل بلا توقف ..
لذلك فإن انتماءها أحرص ! ولكن عينها تكشفان عن شخصية حذرة مرعدة ،
فيها شيء من التعقيد ، وبعيدة عن أى زيف أو تكلف ! تعارفنا فى (أطلنطا)
عاصمة ولاية جورجيا فى الجنوب عقب أولى ندواتنا ، وجدتها أمامى . لم تكثف
بالتحية والجمالة كما يحدث غالباً فى أعقاب مثل تلك اللقاءات .. ولكنها طلبت أن
نلتقى ليكون لنا معاً حديث خاص .. سألتها : أخصفية ؟ .. هزت رأسها بالنفى ..

دعوتها إلى الفندق بغير حماس وأنا أتمنى ألا تأتي ، فإن من وضعوا برنامجنا قد حرصوا دائماً على أن يستنفدوا طاقتنا كاملة مع نهاية كل مساء .. ولكنها خيبت رجائي وجاءت . وجدتها بانتظاري في بهو الفندق لدى عودتنا من حفل عشاء استنفدنا فيه آخر ما تبقى لنا من طاقة الذهن . وعدت خاوية تماماً ، خامدة مثل جهاز الراديو الأصم الأبكم بعد أن نفذت منه شحنة البطارية .. وكان زوجها يصحبها .. وجلس على بعد قريب منا يغالب الإرهاق بكأس بين يديه .. يبدو كمن يؤدي مهمة اصطحابها فحسب .. فالحديث الذي يجري بيننا لا يهمه في كثير أو قليل ، وبدأت أستمع إليها في صمت وفي صبر ، من باب المجاملة والأدب .. وشيئاً فشيئاً استحوذت على اهتمام لم أعرف كيف تجمع في تلك اللحظات لدى .. وجدتي أشاركها الحديث بكل يقظة وتوقد ، وأشعلت ذهني الذي كان قد خمد بوهج أفكارها ، مثلما تملأ البطارية الفارغة من شحنة وتوصيلة فتتقد ويشعل الموتور .. وإلاً فكيف استطعت أن أستغرق في كل ذلك الحديث الطويل الذي امتد وتوغل حتى الساعات الصغيرة من الصباح ، وزوجها على بُعد خطوات منا في بهو الفندق ، وقد استغرق في سبات عميق !

شيء واحد كان يحيرني .. هل هي يهودية ؟ .. أو مجرد مواطنة أمريكية ذات اهتمامات سياسية ؟ . ولم أشأ أن أسألها .. انتظرت منها أن تصرح هي ولقد انتظرت طويلاً .. كان حديثها لا يعكس فقط ثقافة ووعياً بما يدور ، وإنما كان يؤكد الدراسة ، بل الاحتراف ، مع أنها مجرد زوجة - على حد ما قالت لي - وترعى ابنتين وتساعد زوجها هذا في إدارة المطعم الذي يمتلكه .. كان تناوّلها للأمور لا يشي بأى مشاعر ذاتية خاصة ، كان تناوّلها علمياً مجرداً من أى عواطف أو ألوان .. كانت تتحدث عن الفلسطينيين بذات النبرات العالية الرنين التي تناوّل بها تعبيراً من الصهيونية أو الأبعاد التي اكتسبتها من الأحداث الاجتماعية والسياسية والنفسية التي

طرات على المجتمع الأوربي خلال القرنين الأخيرين .. وضائقتى هذا الغموض منها ، إلى أن انفجرت فجأة بعد مرور حوالى ساعتين من بدء الحديث . وفجأة قالت لى بتردد واستحياء : ربما قد أدركت أننى يهودية .. قالتها بصوت خافت يتعارض مع نظراتها المتسائلة الفضولية التى تصوبها من حين لآخر إلى أعماق أعماق تحاول أن تستشف منى شيئاً ، وكأنها تبحث عن غير ما تسمع ، أو كأننى أبطن شيئاً مكنوناً ، وأبدى لها شيئاً آخر .. قلت لها : لقد بقيت ساعتين أنتظر منك هذا « التصريح » قالت وقد أبعدت عينها بعيداً لأول مرة دون أن تحاول اقتحام أعماقى : « لقد خشيت أن ينتهى تعارفنا من قبل أن يبدأ » .. ودهشت .. ولكنها ذكرت لى عن تجارب لها سابقة .. مع بعض من تعارفت بهم من المصريين ، وقد كانت تعمل يوماً قبل زواجها فى الأمم المتحدة سكرتيرة لرئيس أحد الوفود .. وزارت مصر فى عام ١٩٦٤ ، وكانت تقابل بالترحاب والإقبال كأمريكية « وإلى أن يدركوا أننى أيضاً يهودية ... عندئذ تتغير الأمور حالا والنظرة .. ولا أعود أرى سوى الحذر ، ولا أقابل إلا بالشكوك » . قلت لها .. الحذر والشكوك كانت علامة مميزة للمجتمع المصرى فى ذلك العهد من الستينيات .. ليس تجاه الأجنبي عموماً واليهودى خصوصاً ، بل بين المصرى والمصرى فى كثير من الأحيان .. فإن للمعاناة أشكالاً وأنواعاً .. فقد عرف اليهود اضطهاد الأغلبية للأقلية ، ولكن يوجد أيضاً أنواع من اضطهاد الأقلية للأغلبية ، وهذه هى معاناة الشعوب التى تُحكم بالإرهاب وبالديكتاتورية ..

وتواعدنا على اللقاء فى اليوم التالى . وعلى مدى الأيام الثلاثة التالية التى استغرقتها الزيارة .. كانت تأتى إلى الفندق فى الصباح وتتظرنى على مائدة الإفطار فلا تشارك بأكثر من فنجان من القهوة ، وتظل تتحدث وتتناول إفطارها بصوت عال وتحكى عن نفسها المزيد . وفى الليل أجدها لدى عودتى إلى الفندق

بانتظاري .. ولم تعد تصحب زوجها هذا الذي سرعان ما ينعس ويخرجها عندما يسقط رأسه على صدره . وأثارت تندر زملاء الرحلة وتعليقاتهم .. « ماذا تريد ابنة العم تلك » ؟ .. أهذه هي ما يعرف « باللزقة الأمريكية » ؟ .. ولكنني كنت أجد متعة حقيقية في حديثها ، وكانت لديها قدرة غريبة في اختراق ما وراء المنظور السياسي الراهن ، واجتلاء تصورات عصرية تحمل أبعاداً قد تختلف فيها ولكنها تستحق الاهتمام والمناقشة ..

وخيل إليّ وكأن لا شغل لديها على ما يبدو سوى الصراع العربي الإسرائيلي ، وأن لا مشكلة في حياتها سوى ما يسمى بمشكلة الشرق الأوسط !
قالت إنها مادامت تقوم بواجبها الأكمل كزوجة وأم فإن من حقها أن تزاول اهتماماتها هي .

ولا بد لي أن أقرر أنها إحدى الشخصيات النسائية النادرة التي قابلتها حتى الآن . وعندما أعود من وقت لآخر وأقرأ في رسالتها اللتين تقدمت بهما إلى جامعة جورجيا ، وإحداهما في اتجاه تجاوز الأيديولوجيات المتعارضة إلى مجتمع إقليمي يقوم من دول الشرق الأوسط .. بدأت فيها بحثاً علمياً مركزاً لكلتا الأيديولوجيتين : القومية العربية ، والصهيونية . وخرجت بنتيجة ، بل بالأصح تجعلك تخرج بنتيجة غريبة وهي أن كلاً من الشعب الفلسطيني المشتت الآن ، والشعب اليهودي الذي استقر جزء منه على ما يعرف اليوم بدولة إسرائيل .. كلاهما وجهان لعملة واحدة .. كل ما هناك أن المعاناة اليهودية والمأساة قد عرفت طريقها إلى اليهود قبل قرن من الزمان .

نماذج أمريكية من اليهود من الماضي إلى الغد !

نوفمبر ١٩٧٨

كلاهما وجهان لعملة واحدة . كل ما هناك أن الإسرائيليين قد سبقوا الفلسطينيين في الانصهار في المأساة وذلك « بمرحلة زمنية » ولكنها دورة ، وللعجب تكاد أن تتكرر مرة أخرى مع الفلسطينيين بكافة المعالم ، وإلى نفس النتائج ، وتتكرر المطالب وبذات الشعارات ، وبمثل ما حمل اليهود منذ ما يقارب قرناً من الزمان .

كل ما هناك أن اليهود كانوا دائماً عمليين واقعيين ، وقبلوا وسعوا إلى كل فرصة متاحة . وبقى أن يعي الفلسطينيون الدرس جيداً ويدركوا أنهم لو قبلوا الفرصة المتاحة فلسوف تقودهم حتماً إلى تحقيق الأمانى المشروعة لكل الشعوب ... ومن الدراسة العلمية التى تقدمت بها السيدة الأمريكية اليهودية جيل .ك . راينتز ، وحصلت بها على درجة الماجستير من جامعة جورجيا ، سأقدم بعض الأفكار التى تستحق الاطلاع عليها ومناقشتها ، ونحن فى مطلع عهد جديد من التناول العلمى للأمر ..

والهدف الرئيسى لهذه الدراسة هو محاولة بحث قيام مجتمع لدول الشرق الأوسط ، يكون قوامه التعاون الإقليمى ، وهو سمة هذا العصر الذى خلف عصر صراع القوميات .. أى بمعنى أكثر وضوحاً : هل يمكن إيجاد أيديولوجية إقليمية للشرق الأوسط تتعدى صراع القوميات ، ومشاكل الأقليات ، واختلاف نظم الحكم ، ويكون فيها التطلع إلى العصرية ، بالتعاون الاقتصادى الإقليمى - هو

البديل العملى لمفهوم « الوحدة » كفكرة لا يمكن تحقيقها عملياً إلا فى حدود نادرة !

« هل يمكن أن يباشر الإسرائيليون والفلسطينيون - فى حالة ما إذا شكّلوا دولة - وكذلك كل أصحاب الأدوار الأخرى فى الشرق الأوسط هل يمكنهم أن يباشروا مراحل نموهم وتطور مجتمعاتهم بدون التعدى على حقوق الآخرين ؟ . فى نقطة ما من وقت ما يمكن تحقيق مثل ذلك ، وكما هو الحال فى أوروبا التى عرفت حربين مريرتين على متسع تلك الرقعة الأرضية الهائلة ... » .

إنه ليس موضوعاً هيناً ولكنه يتحدى على الأقل طموح الفكر .. ولزاماً على ، وقبل أن أصل إلى ما انتهت إليه فلا بد أن أطرح الموضوع بأبعاده جميعاً : التاريخية ، والنفسية ، والسياسية ، مع الإيجاز والتركيز .

وهى تبدأ ففكر أولاً أنها - أى الصهيونية - كحركة وأيدولوجية محور للاختلاف الشديد ، بل التعارض .. كذلك يوجد خلط كبير حول مصدرها وأهدافها ومبادئها .. إنها عند معتقبيها تتخذ شكلاً نبيلاً ، فهى حركة التحرير للشعب اليهودى . وهى عند مناهضيها أيدولوجية عنصرية تستحق الإدانة والتنديد .. ولأن الصهيونية قابلة للانتقاد من البعض والتعجيد من البعض الآخر فإنه يبقى السؤال الهام التالى الذى تطرحه وتحاول أن تجيب عليه :

هل تستطيع الصهيونية أن « تتكيف » بحيث تستطيع أن تؤدى رسالتها لليهود وتكون مقبولة من الطرف الآخر ! وبمعنى أوضح تتساءل : هل العرب يعترضون عليها من حيث التطبيق الإسرائيلى لها ، أو أن الاعتراض هو على الصهيونية كأيدولوجية فى حد ذاتها ؟

وتناقش هى الصهيونية وفق هذا المفهوم :

إنها حركة العودة باليهود إلى أرض إسرائيل (إيريض إسرائيل) أى أنها تقوم على

أساس وجود (شعب) يهودى يخضع منذ القدم ولا يزال لنفس التراث والقيم والمعتقدات التي ترقى لديهم في بعض الأحيان إلى مقومات القانون .. ووفق ذلك كان من الضروري وجود دولة مستقلة ذات سيادة لهؤلاء الذين يودون العيش فيها أو الملاذ بها . ووفق ذلك فهي : حركة قومية لتقرير المصير .

وتعود دعائم « الصهيونية العصرية » ليس إلى تيودور هيرتزل كما هو شائع وإنما إلى ليون بنسكر الذي عاش في روسيا ونشر مؤلفه (التحرير الذاتي) في عام ١٨٨٢ .

فقد كان أول من نبه إلى أن ظاهرة المعاداة للسامية التي نشطت في أوروبا عموماً وفي روسيا خصوصاً في أواخر القرن الماضي هي « ظاهرة نفسية » وليست ظاهرة اجتماعية . لقد عبر بنسكر عن المعاداة النفسية لليهودى كما يلي : إنه يتلخص في الشعور بالغربة ، أى عدم الانتماء إلى أى مكان ثابت . وقد فسر ذلك على النحو التالى :

« طالما بقى اليهود .. الأمة الشبح » أى أمة بلا وجود طبيعى ، فلسوف يبقى هذا الشعور النفسى قائماً . ليس عند اليهود فقط ، بل عند الآخرين ، وهذا هو الأهم . إنه يقول في عام (١٨٨٠) : نحن شعبٌ . شعبٌ . وحاولنا بإخلاص وفي كل مكان أن نذوب في المجتمع الذى حولنا فلا نستبقى لنا سوى عقيدة آباءنا . ولكنهم لم يسمحوا لنا بذلك . لقد عشنا لأجيال وأجيال فوق أراضٍ اعتبرنا فيها دائماً غرباء . بل كثيراً ما حدث أن اعتبرنا كذلك ممن جاء أجدادهم من بعد أجدادنا وأقاموا فيها . ولكنها « الأغلبية » دائماً هي التي تحدد من هو (الغريب) . وعلى ذلك يكون وجود اليهود (أقلية) في كل مكان ، بلا أغلبية في أى مكان وهو أمر غير طبيعى لأى (قومية) .. أن يكونوا ضيوفاً في كل مكان وليسوا أصحاب ديار في أى مكان هو معقد المشكلة ، ومثار الاختلاف بينهم وبين الآخرين ، هو بقاؤهم غرباء

دائمين . وعلى أساس من هذه المعتقدات توصل بنسكرك إلى أن الحل الوحيد للمشكلة اليهودية هي أن يعيش اليهود على أرض تكون لهم ويتحولون إلى أمة (طبيعية) مثل باقي الأمم . أين تكون . لم يهتم مبدئياً بمكان الاختيار برغم أن الروابط الدينية والعاطفية لم تكن لتخفى عليه بما تسميه التوراة (بايريز إسرائيل) أو أرض فلسطين كما تعرفها الإنسانية على مر التاريخ .. انصب اهتمامه كله على إدراج طريق الخلاص وهو : الحكم الذاتي اليهودي .